الكتاب الثالث

نقد المعرى لعلاقات الاقوال

الفصل الأول

صراط النقد

١) نقد الأدب الجاهلى من الوجهة الإجتماعية .

نصب أبو العلاء صراط نقده بين الجنة والنار فاختار الدار الآخرة مسرحاً لهذا النقد وموئلا لمعارضه . وقد جاء به نقداً أدبياً رفيعاً لأقوال الشعراء ومعانى الأدباء ومذاهب المفكرين ، ونصيبُ أبى العلاء من النقد الأدبى فاق حدود الوصف ، فان رسوخ علمه فى نحو العرب وتمكنه من لغتهم تمكنا أوفى على الغاية وبذّ به كل لغوى قبله وبعده إلى اليوم ، وإن حافظته الواعية الكبرى ، وطول نفسه فى تتبع الغايات وتحبير الفصول وإرساله الشعر فى رحاب الفلسفة ؛ علا به فى نقد الأدب ، وأقوال المتكلمين ومزاعم الفلاسفة علواً كبير . وقد فتق له خياله الثاقب أن يجعل ساحة نقده للأدب والشعر وأخبار أهليهما فى الجنة والنار ، فكانت (رسالة الغفران) محشراً لهذا النقد وأخباره .

فما هى إلا خطرة يخطرها على بن منصور الذى تخيله أبو العلاء قد جاس خلال الدار الآخرة فهبط الجنة ، فإذا هو يمضى فى نزهته يمر بشابين يتحادثان وكل واحد منهما قد جثم على باب قصر من الدر . فيسألهما من أنتما رحمكما الله فيقولان نحن النابغتان ، نابغة بنى جعدة ونابغة بنى ذبيان . فينطلق أبو العلاء بلسان ابن القارح موازناً بين النابغتين . فأول ميزان يضعهما فيه أن نابغة بنى جعدة

ادرك الإسلام ، أما النابغة الذبياني فلم يدركه. ويجعل من ذلك سبيلا إلى استنطاق النابغة بأشعاره التي حلف فيها برب الكعبة وما هريق على أنصابها من دماء . ثم يتسلل أبو العلاء بعد هذه التوطئة إلى جحيم نقده فيما سار فيه الأدباء الأقدمون والرواة المزورون ، وما خاضوا فيه من حديث (المتجردة) ودالية فيها وكيف أنكر على (أبي أمامة) خاصة النقاد وعامتهم تلك الأشعار التي يقول في أوائلها (زعم الهمام) . وها هنا جعل أبو العلاء النابغة الذبياني مدافعاً عن نفسه بقوله : (لقد ظلمني من عاب عليّ ، ولو انصفني لعلم أنني احترزت أشد احتراز ، وذلك أن النعمان كان مستهتراً بتلك المرأة فامرني أن اذكرها في شعري فأدرت ذلك في خلدي فقلت إن وصفتها وصفاً مطلقاً جاز أن يكون بغيرها معلقاً . وخشيت أن أذكر اسمها في النظم فلا يكون ذلك موافقاً للملك لأن الملوك يأنفون من تسمية نسائهم فرأيت أن أسند الصفة إليه فأقول زعم الهمام) .

ومن دفاع النابغة عن نفسه يتسرب أبو العلاء إلى ملامة الرواة المصحفين والنقلة الكاذبين الذين كان من مضرتهم على الأدب وجود كل شعر منحول وقول مرذول . وتزويرهم الأخبار واختراعهم للحوادث ، فيقول حينئذ على ابن منصور : (لله درك يا كوكب بني مرة ولقد صحف عليك أهل العلم من الرواة وكيف لي بأبوي عمرو ، المازني والشيباني . وأبي عبيدة وعبد الملك وغيرهم من النقلة لأسألهم كيف يروون وأنت شاهد) .

ويأتي فن أبي العلاء بهؤلاء الرواة في طرفة عين فيعقد بهم مجلس مناظرة ونقد في رحاب الجنة حول كلمة من بيت للنابغة وكيف يكون فيه ضمير المتكلم بالفتح أو بالضم . وفي هذا تهكم لاذع لأبي العلاء يرمي إلى أن كثيراً من الرواة كانوا يتحلقون حول كلمة واحدة . ويتجادلون فيها وهم يقطعون العمر في ذلك سدى .

ولكي ينقد أبو العلاء بهذا الأسلوب اللين الدقيق تزوير الناحلين وتوليد

المولدين جعل ابن القارح يقول للنابغة أشعاراً أنشدها فى المتجردة زمن الحياة الدنيا وذكر اسمها فيها وذكر النعمان وتولعه بها .

فينكر النابغة هذا الشعر ويقول ما أذكر أنى قلته فى الدنيا ، فيقول الشيخ الحلبى (إن ذلك لعجب فمن الذى تطوّع فنسبها إليك) .

وفى قول المعرى (من الذى تطوع فنسبها إليك) لمزٌ للواغلين على الأدب فإن مثل هذا كثير فى أدب العرب .

كذلك يخرج قارىء هذا الفصل من عند أبى العلاء وقد قر فى نفسه جانب من تاريخ الأدب العربى فى جاهليته وما لحقه من زور وتوليد كان سببه الرواة المصحفون ، وأهل الأخبار المرجفون .

وفى هذا بلاغ للنقد أحسن أبو العلاء الإدلاء به بغير عنف ولا خصومة.

فإذا انتهى المعرى من الكلام على الذبيانى أتى إلى لبيد بن ربيعة العامرى فاستنشده فوجده مجبلا فى الدار الآخرة يقول : (هيهات إنى تركت الشعر فى الدار الخادعة ولن أعود إليه وقد عوضت ما هو خير وأبرّ)

وفى هذا إلماع من أبى العلاء إلى تأثير القرآن والدين الإسلامى فى آداب الجاهلية ، وطمسهما لمعالمها ، وإشغالها الشعراء والناس عنها بالحنيفية الجديدة.

ولا ينسى أبو العلاء الأعشى لكن يجرى خصومة بينه وبين النابغة الجعدى فيضرب أبو العلاء فى مفصل القول ، ويصمم النقد فى قلب الرواة الذين يعدون الأعشى رابع شعراء الجاهلية أهل الطبقة الأولى إذ يقول عن النابغة الجعدى : (أغرّك أن عدك بعض الجهال رابع الشعراء الأربعة ، كذب مفضلك)

وينساق هذا الخصام إلى هراش بالمفاخرة يخرج منه أبو العلاء بنقدات لواذع فى قسمة الحظوظ إذ يقول الجعدى للأعشى :

(أسكت ياضُلّ بن ضلّ فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله . لحقّكَ أن تكون فى الدرك الأسفل من

النار ، ولقد صلىَ بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت إنه غلط بك) .

ويعربدان فى الجنان حتى يصلح بينهما الشيخ أبو منصور . وفى هذا معرض من معارض الحياة الأدبية العربية ومظاهر اجتماعها كما خفقت فى سوالف دنياها ، آخذة بتلابيب المنافرة يسعى كل شاعر فيها وأديب إلى أن يعد نفسه الأعلى وغيره الأدنى غير ماضين كما مضت آداب الناس فى بناء مجد الأمة وإقامة رواق العز عليها .

ولا يفوت أبا العلاء أن يعنى بالحديث عن امرىء القيس وأقوال النحاة فى كثير من أبياته ومذاهبهم فى الإعراب ، وأن يعرض أشعاراً تعزى إليه شعراً فينكرها الشاعر الجاهلى ويفظعه كِذاب الناس وتقولهم على لسانه إذ يعزون إليه شعراً من الرجز وهو القائل فى أشرف الشعر (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) . ثم يتناول شعره من وجهة الزحافات التى وقع فيها ؛ فيجعله يدافع عن نفسه باتهام المعلمين تغيير شعره بقوله : (وأما المعلمون فى الإسلام فغيروه على حسب مايريدون) .

ويمسك بعنترة وهو فى السعير فيداعبه بشعره فى المدامة وقوله :

(هل غادر الشعراء من متردم) ويسمعه شعراً شبيه المعانى بمعانيه قاله حبيب بن أوس الطائى . فيستنكر عنترة نسبج حبيب ويقول عنه بعد أن سمع من نظمه : (أما الأصل فعربى ، وأما الفرع فنطق غبى وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب) .

وإنى لأعجب لأبى العلاء فى أن يجرى هذا النقد على لسان عنترة لشعر حبيب . وهو فى لزومياته كثير التأثر بصناعته ، لعّاب بالألفاظ كلعبه ، مكثر من الجناس والطباق وسائر البديع إكثاره ، وقد كان يحبه فألف فى شرح شعره كتاباً .

ويمضى وراء علقمة مستملحاً وصفه للنساء ، وعمرو بن كلثوم عارضا

لاصطباحه بصحن الغانية ، شارباً خمور الأندرين ، ويحاوره فى إحدى قوافيه وقد جعلها كلبة (سخينا) فهى تحتمل أن تكون من السخاء أو الماء الساخن .

(٣) النقد الاجتماعى للأدب الاسلامى

تجىء النوبة فى رسالة الغفران إلى حسان بن ثابت فيتناوله أبو العلاء فى أشياء كان ينبغى أن يتجرد منها شعره حين مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ ليس فى ذكر الخمر ، وريق المرأة لياقة بين يدى مدح الرسول . وليس يجوز على المعرى نسيان قضية لصقت بحسان أبد الزمان . فهو حين مر بالقول عليه جعله يعترف بحديث الإفك فيقول : (لقد أفكت بجلدى رسول الله مع مسطح) . ولا يغيب عن باله جبن حسان وهو مشهور فيه كما يقولون بجعل حسان يدفع هذه الفرية عن نفسه ، ويدعى أن قومه أشجع العرب . وهو رأى ذو سابقة لأبى العلاء فى دفع الجبن عن حسان بعدما أجمع الرواة السابقون بأن الجبن كان فى حسان نقيصة مشهورة . وقد تنبه نفر من أدباء العصر إلى أن حسان لم يكن جباناً . وقلت إن يكنه فإنما هى حالة عصبية قد اعترته فى النصف الثانى من عمره . وكل شعره فى صباه وشبابه يدل على شجاعة وأنه كان مِدْرَة قومه حتى كان من كناه (أبو الحسام) .

ويجمع أبو العلاء ابن منصور بالشاعر الحطيئة فيصف الحطيئة بالصدق هجوه نفسه ، ويذكره بالزبرقان بن بدر فيقول الحطيئة : « انتفع بهجائى ولم ينتفع غيره بمديحى » .

وفى هذا تقرير من أبى العلاء لشاعرية الحطيئة فى الهجاء . فهى شهادة ببراعته فيه أكثر من شعر المدح . وهو رأى منه فى أن الحطيئة كان مطبوعاً على الهجاء . وأحسب أما العلاء لا يبتغى بالصدق المعنى الأخلاقى ، وإنما أراد الصدق فى الطبع والفن . فلقد كان الحطيئة كاذباً فى بعض أهاجيه ، صادق

الطبع فى أقوالها أى إنه يخرجها من طبع صادق فى الهجو لا متكلف فيه أو كاذب بفنه .

فإذا ترك الحطيئة نظر إلى الخنساء فاذا هى قريبة المطلع إلى النار تريد أن ترى إلى صخر فإذا هو كالجبل الشامخ . والنار تضطرم فى رأسه . فصحح ذلك قولها عنه « كأنه علم فى رأسه ناره » . فلم يحاول أن يذكر على سجيته فى النقد شعرها بشىء وإنما أرسلها لمزة من تهكمه الخفى قصد فيها أن يقول إن صخراً وكان هادياً للضلال فى الدنيا جوزى فى الآخرة بأن يحترق فى الجحيم وتأكل النار من رأسه .

أما درة الشعر فى تاج بنى أمية (الأخطل التغلبى) فقد وسده أبو العلاء دار اللهب فحاسبه حساباً عسيراً على أقواله فى خمرياته ، وجعل يذكّره بأيام يزيد ، فيزفر زفرة يعجب لها الزبانية .

وينهض على بن منصور من عنده وهو يقول له : « عليك البهلة قد ذهلت الشعراء من أهل الجنة والنار عن المدح والنسيب وماشَدِهتَ عن كفرك ولا إساءتك » .

وفى تقريع أبى العلاء للأخطل انسياق مع رأى أعدائه ممن جعلوا بقاءه على النصرانية ، ومدحه يزيد ، ولزامه شعر الخمر سبيلا إلى ازدرائه . وكان الأجدر بأبى العلاء وهو الحر رأياً الحصيف نقداً أن يتعرض للأخطل من الوجهات التى تعرّض فيهما بالنقد لأقوال سائر الأدباء والشعراء الذين أنزلهم منازل رسالة الغفران وقسمهم على الجنة والنار وعرضهم فى معارض النقد فحص أقوالهم وحلل آراءهم فى البيان واللغة والإعراب .

ويلم أبو العلاء ببشار بن برد وأحسبه أشفق عليه من الحمى ، وأهل الشجون أصفياء يحدب بعضهم على بعض . فبشار عند المعرى حسَنُ المقال سىء المعتقد ، تجوز عليه الرحمة . لكنه لا يُفلته من النقد اللغوى فيجعل ابن منصور يُقاضيه فيه . فقد جمع بشار الشَّبَد وهو اسم طائر بفتح الباء الموحدة على

الشبد بسكونها . والعرب لاتجمع فُعَلا على فُعْل . وإن كان سكن الباء فقد أساء ، لأن تسكين الفتحة غير معروف ولا حجة معه بشواهد الشعر . ولم يسهل أبو العلاء فى نقده لبشار ، وإنما عنف عليه بلسان ابن منصور فدخل به مجاهل من اللغة لاعهد له بها فى الجموع والقياس والسماع حتى أزهق روحه فقال له بشار :

(ياهذا دعنى من أباطيلك فإنى لمشغول عنك) .

وفى جواب بشار نعت لأقوال اللغويين بأنها أباطيل ماعرفتها العرب ، ويعود بى العجب من نقد أبى العلاء لمقولات اللغويين مع أنه بكثير من أقواله فى رسالة الغفران ينطلق شارحاً أوجه الكلام على أحوال شتى وتكثر من طرف الإعراب مما يُعجز غيرَه من أئمة اللغة وجهابذة النحاة .

(٣) النقد الاجتماعى للأدب العباسى والأندلسى

لم يطل أبو العلاء الوقوف بقضايا الأدب ، فقد اكتفى بأن ينقدها نقداً عابراً موجزاً . وكان إذا عرض لذكر شاعر أكثر الاستطراد فى شأنه دون جثوم على نقدته واستقصاء لها . والظاهر أن الفكر كانت تزدحم على أماليه فلا يستطيع لها صدّاً ولا لجاحها كبتاً .

فكذلك ألمّ بأبى نواس إلمامة طريق ذاكراً رأيه فى دينه وأنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه . لكنه عاب عليه قوله المشهور : (تيهُ مُغنٍّ وظرف زنديق) . دون أن يذكر أوجه العيب . وعاب صدر هذا البيت بأنه مأخوذ من امرىء القيس وذكر فيه الوقوف على هاء فى وسط الكلام فى قوله : (نَديمُ قَيل محدّثه ملك) لأنه مضاف ومضاف إليه فلا يحسن عليه السكوت وأعجب ببيتيه اللذين يصف بهما كأس خمر منقوش عليها صورة كسرى وفوارسه تصيد المها .

أما أبو تمام فكذلك أبدى الرأى فى دينه بأنه ماأمسك منه بزمام ، ثم

اندفع إلى نقد شعره ومعانيه فتمنى لو أقامت عليه القصيدتان الممدودتان فى أول ديوانه مأتماً فناحتا عليه كابنتى لبيد ، لو كان للقصائد علم وتأسف . وقال لو فعلت ذلك الممدودتان لجارتهما البائيات بالبكاء عليه بمأتم أعظم رنيناً . ثم أتبع الكلام على حروف المعجم التى أتت عليها قوافى البيت ، فلما صار إلى الثاء استثقلها وقال إنها قليلة فى شعر العرب . ثم ذكر له بيتاً قافيته ثاء ، وشبه هذا الشعر بأراجيز رؤبة وما كان نحوها من القوافى المتكلفة والأشعار المتعسفة . فكانت منه هذه نقدة لاذعة لأبى تمام وقد أجمع الدارسون شعره إلى اليوم أنه كان متكلف القوافى متعسف الشعر مع حلاوة معانيه وجمال مبانيه ، ثم أشفق عليه من النار أن تأكل أوصاله وأن يصلى جسدُه الحميم (لأنه صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ يستخرجها من غامض بحار ، ويفضُّ عنها المستغلقَ من المحار) .

وتعرض لابن الرومى غير ناس مذهبه والحديث عن طيرته بإسهاب مجملا الكلام على أدبه كقوله وإنه : (أحد من يقال إن أدبه كان أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة) . وكان الأحرى بأبى العلاء أن يسهب فى تحليل أدب ابن الرومى لأنه أدب من نوع نفيس ، وتعجب النفاسة أبا العلاء ، فأين أوصافه الغرالتى بذبها شعراء العرب ، وأين استقصاؤه للمعانى واستنفاده لمآتيها وأين وحدة القصيد التى ما عرفها العرب قبل ابن الرومى . كل هذا لم يذكره أبو العلاء فى نقده الأدبى برسالة الغفران ، حتى أنه حين عرض له الكلام على المتنبى لم يكن فيه مستوفياً . وقد أثار ذكره إياه على بن منصور حين سفهه برسالته إليه ، فدافع أبو العلاء عن تولع أبى الطيب بالتصغير وأنه لا ملامة عليه فى ذلك لأنها عادة صارت فيه بالطبع ، وهى تغتفر مع المحاسن . ثم طفق يحلل كلمة أهيل التى وردت فى ذم المتنبى للزمان فى أصلها ووضعها وجمعها وانتقالها إلى الواحد وقول بعض النحويين فى ذلك . ثم التفت إلى حبس المتنبى فى العراق والشام وذب عنه فى تهمة النبوة ودعا إلى رجوع الناس فى الحكم

إلى الحقائق : (لأن نطق اللسان لاينبيء عن اعتقاد الإنسان) . ثم أعاد الاستطراد إلى ذكر أبي الطيب وصلاته بموضع فى معرة النعمان وخوارق بنوته ثم عاد إلى شكاة أهل الزمان إليه وجعله سالكا فى هذه الشكوى منهاج المتقدمين الذين يشكون الدهر حتى جاء فى الحديث . (لاتسبوا الدهر فالدهر هو الله)

وقد انساق أبو العلاء فى نقداته هذه للشعراء والأدباء بنزاوت متقطعات وعندى أن السبب فى اضطراب طريقته الأدبية فى النقد برسالة الغفران آت من على بن منصور فقد شغله الأديب الحلبى سامحه الله ، بالكلام على أمور خارجة من نطاق الأدب داخلة فى حظائر الفلسفه وعلم الكلام كحديثه الطويل عن الملاحدة ، واضطرار أبى العلاء للرد عليه فى طويل هذا الحديث . ولو أن ابن منصور جرى فى رسالته على غرار النقد الأدبى الذى كان معروفاً إلى عصره فذكر الشعراء والأدباء مظهراً محاسن آثارهم الأدبية ومساوئها ، لرد له أبو العلاء الصاع صاعين ، ولكانت غنية الأدب العربى كبيرة فى رسالة الغفران

وكان أبو العلاء مجذوب الميل إلى علم النحو فى كثير من مراحل رسالة الغفران ، ولا ضير عليه فى ذلك ، فقد كان لغويا وكان يعد من أكابر النحاة فى زمنه .

أما حديثه عن الأدب الأندلسى فكان جملا قصرها على انتقاده أدب أولئك المغاربة فى تولعهم بالمبالغة الشائنة والمغالاة الذميمة فقال :

(كان لهم فى المغرب رجل يعرف بابن هانىء وكان من شعرائهم المجيدين فكان يغلو فى مدح المعز أبى تميم غلوا عظيما . وحضر شاعر يعرف بابن القاضى بين يدى أبى عامر صاحب الأندلس فأنشده قصيدة أولها :

ماشئت لاماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فأنكره عليه ابن أبى عامر وأمر بجلده ونفيه) .

ذلك حظ الأدب الأندلسى من أبى العلاء فى الرسالة . وكنت أتمنى أن أجده ناظرا فى شعر شعرائهم وهم أهل لأن يختلبوا شعوره ويستدروا ثناءه وينالوا نقده فى روائعهم وغررهم مما أطلعت غرناطة . ونفحت قرطبة ، وتهدل على ضفاف الوادى الكبير .

الفصل الثانى

نقده النحاة واللغويين

كان يعرف أبو العلاء أن للنحاة مثالب لو عرفها الناس لتحولوا عن إجلالهم . فلقد عقّدوا ما كان بسيطاً من نحو العرب على يد أبى الأسود الدؤلى وإرشاد على بن أبى طالب ، وعاثوا فساداً فيما تعب فيه أهل الفصاحة والبيان وصنفوه فى النحو منذ صدر الإسلام إلى عهد الخليل بن أحمد . ولكن لما جاء سيبويه وتلميذه الأخفش والكسائى وأعوانه والفراء وأصحابه ومن لف لفهم بعدهم ، اضطرب حبل النحو ونفشت فيه العقد . ولقد غدا ذات يوم شيخ أدباء العرب أبو عثمان الجاحظ على أبى الحسن الأخفش فقال له مابال مثلى فى حسن وقوفه على العقل واضطلاعه بالأدب يقرأ كتابك فى النحو فيفهم قليله ولا يفهم كثيره ، فأجابه أبو الحسن بأنه رجل غايته فى التصنيف المنالة ، فإن من قرأ كتابه دعته حلاوة مافهم إلى التماس مالم يفهم فيأتيه وينيله أجراً على إفهامه العويص من كتبه .

وتقاذفت النحو مدينتا الكوفة والبصرة حتى صار للعربية نحوان : بصرى وكوفى . وتعاقب بعد عهد المدينتين على النحو علماء مزجوه بالفلسفة والمنطق ، وأوعروا مسالكه حتى غدا منال من أصعب المطالب وأسوأ السبل فى فنون العربية .

فكان حقا على أبى العلاء أن يتناول النحاة بميامم نقده ولواذع تحليله . فلما جاء على بن منصور خلال الفردوس وجد الصفاء بين الأدباء ، والوئام بين اللغويين والنحاة فقال عن أحمد بن يحيى المعروف بثعلب النحوى وما جرى له مع المبرد : (فصدر أحمد بن يحيى هنالك قد غسل من الحقد على

محمد بن يزيد فصارا يتصافيان ويتوافيان) .

وقال عن سيبويه والكسائى : (وأبو بشر عمرو بن عثمان قد رخصت « أى غسلت » سويداء قلبه من الضغن على علىّ بن حمزة الكسائى وأصحابه لما فعلوا به فى مجلس البرامكة) . ولم ينس الخصومة بين أبى عبيدة والأصمعى فقال عنهما وهما فى الآخرة : (وأبو عبيدة صافى الطوية لعبد الملك بن قريب) فغمز جوانب هؤلاء النحاة اللغويين غمزة أبان فيها أنهم كانوا فى حال الدنيا متخاصمين قضوا العمر فى شنآن ومهاترة . وقد جعل أبا عبيدة فى الفردوس نازعاً عن مماحكاته الدنيوية فهذا يذاكر أهل الجنة بوقائع العرب ، ومقاتل الفرسان ، والأصمعى ينشدهم ما أحسن قائله .

* وقد أظهر أبو العلاء تعكير هذه الطغمة لصفاء العربية ، فكشف النقاب عن ضعف سيبويه حين كان يستشهد بأقوال نفر من الشعراء يخافهم ويخشى هجوهم فيجعل شواهده على الإعراب من أشعارهم إرضاء لهم عنه ، وإسكاتاً لألسنتهم السليطة كالذى جرى له مع بشار بن برد فقال عنه أبو العلاء : (وذكر من نقل أخبار بشار أنه توعد سيبويه بالهجاء ، وأنه تلافاه واستشهد بشعره) .

* ولكن أبا العلاء أشفق على سيبويه من الوجهة الخلقية فنفى عنه تهمة الوشاية ببشار فى بيتيه اللذين ينبه بهما بنى أمية من رقادهم ، ويلمز بهما وزير المهدى يعقوب بن داود الذى سعى بقتله .

وكان سيبويه أحيانا — كما يعرضه أبو العلاء فى رسالة الغفران — غير هياب من بشار ولا وجل فقد عاب عليه استعماله كلمة (الغَزَلا) فقال سيبويه : لم يستعمل العرب الغزلا فقال بشار هذا مثل قولهم البشكى والجمزا ونحو ذلك وأنكر عليه أن يجىء بشعره بالنينات وهى جمع نون من السمك . فأنكر أبو العلاء على سيبويه أنه روى فى كتابه أن النون تجمع على نينات . وناقش فى بعض المواقف آراء سيبويه أو ردها ، فلما تعرض أبو العلاء للكلام على

دخول الألف واللام على كلمة بعض ، استكره ذلك وقال : (كان أبو على الفارسى يجيزه ويدعى إجازته على سيبويه) ودعم أبو العلاء رأيه بالكلام القديم فقال [١] (فيفتقد فيه الكل والبعض) .

ولم يكن أبو العلاء عنيفاً بنقده سيبويه . ومن يدرى فلو وصل إلى أيدينا كتابه الذى ألفه فى شرح كتاب سيبويه لكان لنا رأى فى طبيعة نقده لإمام النحاة [٢] .

وألم بأبى على الفارسى فجعل ابن منصور يقابله فى الحشر . وكيف تفوت أبا العلاء هذه المقابلة وهو يعلم فرط حب ابن منصور لأستاذه ومؤدبه . أفلم يكن على بن منصور قؤوماً بالنحو ، وكان ممن يخدم أبا على الفارسى فى داره وهو حى ثم لازمه وقرأ عليه جميع كتبه وسماعاته ونزل عليه ضيفاً فى بغداد ، فقال بلسان ابن منصور فى رسالة الغفران :

(وكنت قد رأيت فى المحشر شيخاً لنا كان يدرس النحو فى الدار العاجلة يعرف بأبى على الفارسى وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون تأولت علينا وظلمتنا) .

وفى قول أبى العلاء هذا غمزة خافية لكنها شديدة . وكأنها رد لغمزة على ابن منصور التى أدلى بها لأبى العلاء حين ذم المتنبى وقدحه قدحاً شديداً هو والوزير المغربى ، وهو يعلم فرط حب أبى العلاء لها فأحب أبو العلاء أن يجيبه على ذلك الغرار ، فرمى له شيخه وأستاذه أبا على الفارسى بالكذب والتأول على الناس حتى أمسكوا بتلابيبه فى الحشر يقاضونه ، وجعله فى حالة يستجير فيها تلميذه ابن منصور . فيقول ابن منصور فى أحلام رسالة الغفران [٣] .

(فلما رآنى أشار إلى بيده فجئته فإذا عنده طبقة ؛ منهم يزيد بن الحكم

---

(١) ر . غ هندية ص ١٥١

(٢) ذكره ياقوت والصفدى وابن النديم

(٣) ص ٥٧

الكلابي وهو يقول له ويحك أنشدت عني برفع كلمة الماء ولم أقل إلا الماءَ (١) وزعمت أني فتحت الميم في قولي مقتوى وإنما قلت مقتوى بضم الميم . وإذا هنالك راجز يقول له تأولت عليَّ في قول مافعلته ولا غيري من العرب . وإذا رجل آخر يقول له أدعيت عليَّ أن الهاء راجعة على الدرس في قولي : (هذا سراقة للقرآن يدرسه) . أمجنون أنا حتى أعتقد ذلك) .

وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومون أبا علي الفارسي على تأويله . فيتدخل ابن منصور بينه وبين مطالبيه ولامزيه ومحاسبيه ، ويعطف عليه قلوبهم بأن أبا علي يمت بكتابه في القرآن ، بكتاب الحجة وأنه ماسفك لهم دما ولا احتجن عنهم مالا ، حتى تفرقوا عنه .

كذلك جلا أبو العلاء أبا علي الفارسي في ثوب ريبة بين أيدي متهميه ومحاكميه . فنفض ذات نفسه عليه ، وعذيره مالقي من أضراب أبي علي الفارسي ومضارعيه لما ورد بغداد فاعترضوا عليه بالتصحيف حين قال في سقط الزند :

ويوشع رد يوحى بعض يوم وأنت متى سفرت رددت يوحى

فقالوا إنما هي بوح بالباء الموحدة لا بالياء المثناة وكان في حلقة أبي الحسن القاضي التنوخي واحتجوا عليه بكتاب الألفاظ ليعقوب ، فجاهرهم أبو العلاء في إفساد رواتهم لمآثر الكلام العربي فقال لهم :

(هذه نسخ محدثة غيرها شيوخكم ولكن أخرجوا مافي دار العلم من الكتب القديمة) فأخرجوها فوجدوها مقيدة بالمثناة التحتية كما قال .

* وكان أبو العلاء يجول ويدور في كثير من مشاهد رسالة الغفران حول رواية النحاة ومذاهب اللغويين ، فيتناولهم حيناً بالهوادة واللين وآونة بالعنف والبطش . فكان من بطشه بأصولهم أنهم كانوا يستشهدون بكلام أمة وكعاء راعية أغنام جامعة حطب الوقود فيقول :

---

(١) في قوله : فليت كفافا كان شرك كله وخيرك عني مارتوى الماء مرتوى

(كم روى النحاة عن طفل ماله فى الأدب من كفل ، وعن امرأة) لم تكن يوماً بذات بال .(١)

كذلك عرض أبو العلاء النحاة وأرباب اللغة فى معارضهم الذميمة فأظهر تقعر طباعهم ، وافتراء علومهم ، وتصحيفهم أقوال الناس . وكان مفندا لآرائهم الفائلة ، ونقاداً لأقوالهم الباطلة .

ولم يخل لزومياته من ذكر سيبويه ويونس وابن حبيب الضبى والخليل ابن احمد ، فأرسل فيهم أبياتاً مشفقة تبعث فيهم الرثاء أبد الشعر لما أسدوه من خدمة ومعروف لم يجازوا عليه بالخلود ، وماتوا كغيرهم من سواد الناس فقال :

تولى سيبويه وجاش سيب ... من الأيام فاختل الخليلُ
ويونس أوحشت منه المغانى ... وغيرُ مصابه النبأ الجليل
أتت عِلل المنون فما بكاهم ... من اللفظ الصحيح ولا العليل
ولو أن الكلام يحس شيئاً ... لكان له وراءهم أليل

---

(١) رسالة الغفران هندية ص ١١٦

الفصل الثالث

نقده الفقهاء والقراء والمجادلين

إنه زحام دنيا عباسية تعج بصنوف الفقهاء وضروب العلماء، حلقات الدرس فى بيوت علمها منعقدة، وكتبها منشّرة ولفقهائها يومئذ أثر عظيم فى تصريف الدولة. فقد كان أحمد بن أبى دؤاد يسّير المُلْك ويدير شؤون الحكم، ويجرى أرزاق الناس فيمنع معشراً من قوت ويكسب آخرين رزقاً. وظل سلطان علماء الدين منبسطاً على عهود العباسيين حتى دالت دولتهم. وكم كان لهؤلاء العلماء يد هادمة فى أواخر الدولة العباسية.

فليس بدعاً من أبى العلاء أن يصرخ بصوت لزومياته، وأن يرفع سوط نقداته بمثل هذا البيت:

والنسك لا نسك موجود فتتبعه ... فعدّ عن فقهاء اللفظ مرّاق

فهو حين رأى رجال الدين فى عصره متخذين النسكَ بابَ رزق يطرقونه فيستفتحون به على الخلفاء أراد قومه يومئذ على انتباذ الفقهاء لأنهم قوّالون وليسوا بفعالين وهم فوق ذلك مارقون من الدين زنادقة.

ولم يتجاوز أبو العلاء. وهو ينقد الفقهاء، عن أن يدمج فى محشرهم أئمتهم الأربعة المشهورين؛ معتقداً أنهم المذنبون الأولون الذين وزعوا بينهم أمور الدين فأجاز بعضهم أمراً حرمه بعض. فهو إن اتبع هؤلاء الفقهاء وترك عقله غضب عليه عقله، ونفر منه شامساً. فقال:

وينفر عقلى مغضباً إن تركته ... سدى واتبعت الشافعى ومالكا

وهو يقصد إلى أن فى مذاهبهم التى ذهبوا فيها مالا يتفق والعقل.

وقد يسلك الفقهاء الأربعة فى سفود واحد فيقلبهم فيه على نار نقده إذ يقول:

وعُنوا فضل[1] الشافعى ومالك وأبو حنيفه قبل والخصاف

ولو عاش أبو العلاء فى زماننا فرأى الحيل الشرعية التى يتوصل بها بعض الفقهاء إلى الإفتاء باستباحة مال اليتيم وأكل أوقاف المسلمين لكان نقده مجنون الجنون .

وهو أبداً يبّين الرأى فى أن جدال الفقهاء لم يكن إلا فى حب الدنيا وتبعهم فى ذلك القراء فقال :

وتجادلت فقهاؤها فى حبها وتقرأت لتنالها قراؤها

وكان يحرف ضلال نفر من القراء جعلوا القرآن الكريم سلعة لهم يكسبون بها عرض الدنيا ، وزادوا فى الضلالة أن مايؤثر من قراءات وتفسير عن أحدهم ، يناقضه مايؤثر عن الآخر . فأجمل ذلك بقوله :

تسوق الناس بفرقاتهم وانتبلوا جهلا فلم ينبلوا

وليس ماينقل عن عاصم كما روى عن شيخه قُنبل

وكان عاصم بن أبى النَّجود الكوفى أحد القراء السبعة المشهود لهم فى علم القراءات . أما قنبل فهو محمد المكى المخزومى ، ويظهر من قول أبى العلاء فيه أنه كان غير أمين فى النقل عن أستاذه ابن كثير . وهو فيما ينقله ويرد به مخالف فيه ماينقل عن عاصم .

ولاحقّ بهذا ، نقده لطريقة القراءة وهى المسماة بالتجويد . فكان يسمع المقرئين يرفعون أصواتهم فى تلاوات القرآن وكأنهم يشقشقون بالغناء فقال فيهم :

صار الكتاب أغانىَّ الغواة لهم به أغانىٌّ من حَم والزمر

والظاهر أنه لم يتورع فى زمنه نفـــر من القراء عن شرب الخمر حتى قال فيهم أيضاً :

---

(١) فى بعض النسخ (فقال) بدلا من (فضل) ولاوجه للأولى لأن هذا البيت آخر القطعة ومقول القول غير موجود .

تلا كتاب الله من حفظه من هو بالكأس ملىء حفى

ونقد أبو العلاء فى رسالة الغفران القراءات المخالفة التى كان يقرؤها أبو رجاء العطاردى وحمزة بن حبيب وأبو عمر وبن العلاء . فكان مما نقد به قراءة حمزة ابن حبيب قوله بلسان حية كانت فى الدنيا تسكن الكوفة بجوار هذا القارىء (١):

فسمعته يقرأ بأشياء ينكرها عليه أصحاب العربية كخفض الأرحام فى قوله تعالى واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام وكسر الياء فى قوله تعالى وما أنتم بمصرخىّ وهذا إغلاق لباب العربية لأن الفرقان ليس بموضع ضرورة وإنما حكى مثل هذا فى المنظوم) .

وأعاد أبو العلاء الكره على قراءة حمزة فى موضع آخر من الرسالة فقال (وأصحاب العربية مجمعون على كراهة قراءة حمزة وما أنتم بمصرخى بكسر الياء)

أما أهل الجدل والمساجلة فكافية فى وصف نقده لهم قطعة قالها فى عبدالله ابن زيد الحضرمى أحد الأئمة فى لغة العرب وفى قراءات القرآن وهو الذى كان الفرزدق قد هجاه لأنه كان يعيبه باللحن بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فلم يتركه عبد الله وقال له لحنت أيضا بقولك مولى الموالى والصواب مولى موال .

وذكر أبو العلاء فى هذه القطعة جدال عبد الله ومما حكته لأبى إسحاق ابن مرار الشيبانى الكوفى وكانا يتناظران فى الفقه والقراءة فقال عنهما :

أرى ابن أبى إسحق أسحقه الردى وأدرك عمر الدهر نفس أبى عمرو

تباهوا بأمر صيروه مكاسباً فعاد عليهم بالخسيس من الأمر

ولم يصنعوا شيئاً ولكن تنازعوا أباطيل تضحى مثل هامدة الحجر

وانتهى من هذه الأبيات إلى بيت أخير جعل فيه أقوال الزهاد ، فى كذبهم كأقوال وصاف الخمرة . فعنده أشعار العتاهى كأشعار النواسى :

---

(١) ص ١١٢ ط . هندية

وماقاله الكوفى فى الزهد مثلما تغنى به البصرى فى صفة الخمر

وهذا الرأى فى العتاهى والنواسى مصداق لآراء بعض أدباء العصر ممن جعلوا شعر أبي نواس فى الخمر وشعر غيره فى الزهد صادراً من منبع واحد هو الخوف . فالزاهد يخاف الموت وما بعده فيقضى عمره بالزهد . والمتهتك يخاف الموت وما بعده فيقضى عمره بالملذات . فهما يفترقان فى العمل ويصدران عن فكرة واحدة ثم يلتقيان أخيراً فى نقطة واحدة هى الموت . فيرده أحدهما بريئاً لم يأت فاحشة ويلجه الثانى مخطئاً فعل كل كبيرة وصغيرة فهو راض بأن يحمل هموم المعاصى . ويتقدم إلى الموت لا له ولا عليه .

الفصل الرابع

نقده للادباء والخطباء

ويح الشعراء ، من أبي العلاء . لو أنه لم يكن منهم ، لأراق دماءهم وعرق عظامهم ، وشواهم من نقده فى سعير . إنهم يدعون الناس إلى مآدب الكذب والمين فيقول فيهم :

وما أدب الأقوام فى كل موطن إلى المين إلا معشر أدباء

وجعل كلمة الأديب من أدبه إلى الموت لا إلى الطعام فالأدباء مدعوون إلى الردى ، وليس اسمهم من التأدب . فقال :

وكل أديب أى سيدعى إلى الردى من الأدب لا إن الفتى متأدب

ورأى إلى حظوظهم فى الحياة فوجدها منقوصة ، فذم صناعتهم فى رسالة الغفران فقال عنها : [1] (بئس الصناعة إنها تهب غصة من العيش لا يتسع بها العيال وإنها لمزلة القدم وكم أهلكت) وكان من حق أبي العلاء على الأدب ، ومن حق الأدب عليه ، أن يبكى حظوظ أهليه ، وعثرات موهوبيه . فقد رآهم فى كل أمة يشكون نكبات الزمان ، ويقفون بأبواب الملوك والامراء باذلين ماء الوجوه فى ذل السؤال . وقد قلب النظر فى عثارهم أيام بنى أمية وبنى العباس فراح يسكب عليهم عبرة أديب مثلهم ، وذو الشجون يحن إلى ذى الشجون فقال فى رسالة الغفران[2] : (ولم يزل أهل الأدب يشكون الغِيرَ فى كل جيل ، ويُخصون من العجائب بسجل سجيل .

ومسلمة بن عبد الملك أوصى لأهل الأدب بجزء من ماله وقال إنهم أهل

---

(١) هنديه ص ٨٤ (٢) ص ١٢٠

صناعة مجفوة وأحسب أنهم والحرفة خلقا توأمين وإنما ينجح بعضهم فى ذات الزُّمَين ثم لا يلبث أن تزل قدمه ، ويتفرى بالقَدَر أدمه . وإذا كان الأدب على عهد بنى أمية يقصد أهله بالجفوة فكيف يسلمون بن باس ، عند ملكة بنى العباس ، وإذا أصابتهم المحن فى أيام الرشـــيد فكيف يطمع لهم بالحظ المشيد) .

ثم ساق أبو العلاء شواهد من تعس حظ الأدباء فوصف أبا عبيدة والأصمعى حينما قد ما يريدان النجعة وقد خرجا من البصرة مبتئسين لا يبغيان رجعة إليها . حتى قال :

(ومن بغى أن يتكسب بهذا الفن ، فقدأودع شرابه فِى شَنّ) ثم قال (١) : (وصاحب الأدب حليف التصريد) (٢) .

أما الشعراء فلم يكن رأيه فيهم بأحسن من رأيه فى الأدباء فهم عنده شِيَعٌ وفرق ليس عندها من خير فقال فيهم :

فِرَقاً شعرْت بأنها لا تقتنى خيراً وأن شرارها شُعَراؤها

واختلط عليه الأمر فى إثام القضاة الظالمين والشعراء المتغزلين لأنه كان يرى الغزل مفسدة للخُلُق ، كما كان يرى الجور والظلم مفسدة للمجتمع . وأن قاضى (الرى) وكان متعسفاً غاشم الطيش يستوى فى الإثام والشعراء المتغزلين :

جهلت أقاضى الرى أكثر مأثما بما نصه أم شاعر يتغزل

وشهد على الشعراء بقول الباطل وكذب المدح وأراد بهذه الشهادة أن يخفف من جرم أبى الطيب المتنبى فى اتهامه بالتقلب فى مدح الممدوحين فقال :

(والشعراء مطلق لهم ذلك لأن الآية شهدت عليهم بالتخرص وقول الأباطيل ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون) .

وترفق أبو العلاء بالشعراء لأنه منهم ولولا ذلك لصب عليهم سوط عذاب .

---

(١) ر . غ هندية ص ١٣٣ . (٢) عجبت كيف لم يذكر أبو العلاء شيخ أدباء العرب الجاحظ فلم يأت بذكره فى رسالة الغفران . على أنه لو ذكر أبا عثمان لوجد مجال القول ذا سعة فى أدبه العظيم ونقده لشيخ الادباء

ثم جاءت نوبة الخطباء والوعاظ فكان كافيا لدى المعرى أن يكون الوالد جانياً على ابنه بإتيانه به إلى الدنيا ولو كان خطيباً فقال :

على الولد يجنى والد ولو أنهم ملوك على أمصارهم خطباء

وذكر الخطباء بجعلهم مقابلين للملوك لأن عادة الوالى أن يخطب . وقد يمكن أن يكون أراد بالخطباء رؤساء القوم وسادتهم ومن بيدهم مقاليد الجماعة .

وعنده أن الخطباء والوعاظ أهل أحابيل وشباك صيد يقومون فى عرض البلاد بخداع الناس بخطبهم الطوال وأحسبه كان يريد بذلك داعى الدعاة وهذا الغالب مما حمل (الداعى) على محاذاته بالمناقشة ومحاولة الافتراء بها عليه إذ كان قول المعرى :

لايخدعنك (داع) قام فى ملأ بخطبة زان معناها وطولها

فما العظات وإن راعت سوى حيل من ذى مقال على ناس تقولها

وكان المؤيد الفاطمى داعى الدعاة ذات شَقْشَقَة فى الخطابة وبراعة فى البيان وقد اتخذ هذه الهبة الكلامية وسيلة إلى بث الدعوة الفاطمية فى النفوس حتى نشرها فى طول مصر وعرضها وكان من ضلاله أن سافر إلى الأهواز ، لزيارة أعوانه وشيعته . وهنالك أقام مسجداً كان مُهَدَّماً وكتب على محرابه مع اسم رسول الله أسماءَ الأئمة الفاطميين وأمر دعاته بالأذان (بحى على العمل) وأقام الخطبة باسم المستنصر الفاطمى فثار به الناس فى الأهواز حتى خرج منها .

الفصل الخامس

نقده للفلاسفة والحكماء

ترفق أبو العلاء بالفلاسفة لأنه منهم ، كما ترفق قليلا بالشعراء حين نقدهم فكان يراهم من أهل المزاعم ؛ لا من ذوى اليقين . وقد أمسك بكبرى مشاكلهم وهى قضية البعث والنشور فسفه رأيهم فى أفكارها . لكنه وهو يدل على بطلان أقوالهم قوى حجتهم بما قالوا . وذلك أنه رآهم يزعمون وهم المتنطسون أن المنية كالزجاج لا يجبر كسرها ويزعمون إلى ذلك أن آدم يشبه بأوبر . وعند العرب بنات أوبر معروفة وهى الكمأة ، أما أوبر فمجهول . والقياس فى هذا التشبيه الذى أورده المعرى بلسان الفلاسفة المتنطسين يقتضى الجهالة بآدم مع العلم بأولاده فقال :

زعم الفلاسفة الذين تنطسوا أن المنية كسرها لا يجبر
قالوا وآدم مثلُ أوبر والورى كبناته جَهِلَ امرؤ ما أوبر

وخاطب فيلسوفاً قد سلك فى طعامه وشرابه مسلك المتقشفين المهزولين وكان هذا الفيلسوف كثير العناية بصحته يسأل فيها الأطباء جاهداً ، فهزىء منه أبو العلاء بقوله لم تغن عنك الفلسفة شيئاً فأنا خير منك جسما . فقال :

ألم تر أن جسمى فيه فضل وجسمك قد أضر به الشسوف
تطبب جاهداً وتعل دونى فما أغناك أنك فيلسوف

وأعاد هذا المعنى بعد ذلك بقوله :

فكم سلم الجهول من المنايا وعوجل بالحمام الفيلسوف

وإنى لأذهب مذهب القائلين بأن أبا العلاء فيلسوف ، ولكنه غير منظم الفلسفة وكان صاحب مذهب فلسفى وهو الصدوف عن الزواج وأكل الحيوان.

وكان هذا المذهب قوام فلسفته الخاصة . وكانت له فلسفة عامة شارك فيها سائر الحكماء كالكلام فى المعقولات والخلود والروح . واستطيع أن أسميه (فيلسوفاً عقلياً) من فئة فلاسفة المذهب المسمى (Rationnalisme) وهم الذين يطرحون كل مالا يسيغه العقل وقد لخص أبو العلاء مذهبه العقلى هذا بقوله :

كذب الظن لاإمام سوى (العقل) مشيراً فى صبحه والمساء

ولست بسبيل التبسط فى الكلام على فلسفته هو ورأيه فى نفسه وإنما مجرى كلامى على نقده للفلاسفة والحكماء وأصحاب العقول كافة . فهو إذا نظر فى فلسفة أرسطو لم يبين لنا بوضوح أية ناحية ينقد من فلسفة أرسطو . ولو بينها لحسن لدينا الدفاع عن فيلسوف الإغريق أو قبلنا نقد المعرى له . والظاهر أن أبا العلاء كان قد وقف على آراء فلاسفة اليونان فى البعث والنشور . ولا أشك أن أرسطاطاليس وهو تلميذ أفلاطون إنما أخذ عن معلمه فكرة الروح وعرف مقولاته فى الحياة الثانية التى تلقفها أفلاطون عن أستاذه سقراط . وكان موت سقراط فى سبيل هذه الروح وحياتها الثانية . فلما نظر المعرى فى أمر الحياة الثانية وقع اليه ماقال أرسطو . فكان من لمعات نقده المبطن لرأى أرسطو :

لوصح ماقال رسطاليس من قدم وهب من مات لم يجمعهم الفلك

فعنده أن أرسطو لم يكن صحيحاً قوله القديم ، أو مشكوكا فى صحة قوله وهو لم يذكر ماقال أرسطو ؛ لكن بقية البيت تشرح قول الفيلسوف الذى تكلم من قدم وما كلامه إلا على أمر النشور وهبوب الموتى من الفناء فيرى أبو العلاء أن لو صح قول أرسطو — وهو عنده محتاج للصحة — فنهض الناس من مماتهم لضاقت بهم الدنيا وعىّ عن جمعهم الفلك الموسوع .

ثم لجأ الى (مذهبه العقلى) ليدعم رأيه هذا فى نقده لأرسطو ففزع إلى العقل وطلب جوابه ليخبر عن الحقيقة ، فكان عنده أن العقل لا يقول بما

قال أرسطو ، وإنما يجيبك بأن الأحياء هلكوا هلكوا فحسب — فيقول بعد ذلك :

إن تسأل (العقل) لا يوجدك من خبر عن الأوائل إلا أنهم هلكوا

وليس من مذهب أبي العلاء أن ينقد الفلاسفة نقداً قاسياً أو أن ينفيهم من نطاق المعرفة ، لأنهم قبيله وبنو معشره ، فهو حين نقد زعمهم فى البعث والنشور — على نحو ماقدمت أول الفصل — رمى المتنطسين منهم المتظاهرين بالفلسفة والحذق فيها وأهل المزاعم لا أهل اليقين . فقال :

زعم الفلاسفة الذين تنطسوا . . .

أى لم يعتقد هذا الفلاسفة النطاسيون حقاً . وهو فى نقده الاجتماعى لم يعمد إلى فيلسوف بعينه فينقد أخلاقه ، وإنما كان نقده مصبوباً على المذاهب الفلسفية وموزعاً بغير انتظام فى أبياته المتناثرة وأقواله المتفرقة .

أما المعتزلة فلم يكن أبو العلاء يعترف لهم بفضيلة فقال عنهم فى الرسالة إنهم يحضرون المجالس « وهم طاغون ، وكأنهم للرشد باغون وأولئك علم الله أصحاب البدع والمكر وكم متظاهر باعتزال يزعم أن ربه على الذرة يخلد فى النار بله الدرهم وبله الدينار ، وما ينفك يحتقب من المآثم عظائم . وينهمك على القمار والفسق . فدصير الجدل مصيدة ينظم به من الغى قصيدة » وأما الأطباء — وليسوا بعداء عن الحكماء — فإن مبضع أبى العلاء قد سطا على كتبهم وأجرى فيها الجراحات التى عودوها المرضى ، فلمزهم حيناً لمزاً رفيقا . ذكر ابن أبى أصيبعة فى « طبقات الأطباء » أن أبا العلاء ذكر جالينوس وبقراط فى كتابه « الاستغفار »[1] وهو من آثاره التى لم تصل الى المعاصرين وإنما رآها الأقدمون وفيهم ابن أبى أصيبعة . وقد ذكر أبو العلاء جالينوس وبقراط معرض التهكم — لا فى المدح كما يرى ابن أبى اصيبعة — قال أبو العلاء :

---

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ٩٣٧ وهو كتابه (استغفر واستغفرى)

سقيا ورعيا لجالينوس من رجل ورهط بقراط غاضوا بعد أوزادوا
فكل ما أوصلوه غير منتقض به استغاث أولو سقم وعواد
كتب لطاف عليهم خف محملها لكنها فى شفاء الداء أطواد

فأبو العلاء يرى أن هؤلاء الأطباء عقدوا الطب ولم يسهلوه . وابعدوه عن منالة الناس حتى باتت كتبهم خفيفة عليهم ثقيلة على غيرهم كالجبال يستعصى على الداء شفاؤه بها لكثرة مافيها من التطويل والتعقيد والبعد عن اللباب .

وحين نظر اليهم نظرة يأس على عادته فى نظراته المتشائمة لم ير لهم يداً فى وقف الموت أو إطالة الحياة . بل رأى أن كبيرهم وهو جالينوس على عظمته فى الطب وتبحره فى العقاقير ، قد يموت ميتة راعى الضأن فى جهله وبداوته بل قد يزيد راعى الضأن عليه عمراً وعافية فى أهله وقبيله ، فقال :

يموت راعى الضأن فى جهله ميتة جالينوس فى طبه
وربما زاد على عمره وزاد فى الأمن على سربه

وكان يرى الأطباء فى سواد أهل الريب فقرنهم بالمنجمين حين قال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما أن لامعاد فقلت ذاك إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

وفى نقده هذا للمنجم والطبيب وسيلة إلى رفع بعض الضر عن عقيدته التى محص فيها دارسوه زمناً وما زالوا إلى اليوم دون أن يقفوا على رأى واضح فيها . لكنه فى بيت آخر يجعل على الطبيب وسيلة إلى الإيمان بالله ودرء الإلحاد فيقول مستغرباً .

عجبى للطبيب يلحد فى الخالق من بعد درسه التشريحا

فكان التشريح فى نظره بما حواه من الدقائق والروائع حاملا على إيمان العالم بوحدانية الخالق .

الفصل السادس

نقده لأرباب النحل والأهواء

لم يكن لعلى بن منصور بن القارح من قصد حين تحكك بالمعرى فى رسالته إليه سوى أن يسائله فى آراء الإلحاد ويكتنه مزاعمه فى مقولات الزنادقة وقد اتخذ من ابن القارح السبيل إلى ذلك سهلا ، فتكلم فى رسالته إلى أبى العلاء على الملحدين والكفرة واحداً بعد واحد ، وذكر أبياتاً لهم ، فيها صراحة أقوالهم فيما ضلوا فيه سبيل الدين واجترؤوا بالإثام واجترحوا الذنوب . فكان أول رده على ابن القارح فى نقد الزنادقة[1] .

« ولم يزل الإلحاد فى بنى آدم على ممر الدهور حتى أن أصحاب السير يزعمون أن آدم صلى الله عليه وسلم بُعث إلى أولاده فأنذرهم بالآخرة وخوفهم من العذاب فكذبوه وردوا قوله ثم على ذلك المنهاج إلى اليوم . وبعض العلماء يقول إن سادات قريش كانوا زنادقة . وما أجدرهم بذلك » .

فأبو العلاء يسهل الأمر على ابن القارح ، ويقلل من ثورته على الملحدين بقوله إن الإلحاد معروف فى بنى آدم إلى اليوم .

أما تصريحه بلفظه (وما أجدر قريشاً) بالزندقة فهو معالنة منه فى رأيه بمعتقد قريش ورأيه هذا فى قريش الجاهلية حين كانت على ضلال فى دينها وحين حاربت محمداً صلى الله عليه وسلم وكذبت بدينه ولم تصدق ماوعدها به محمد من البعث والنشور .

ثم يدفع أبو العلاء عن صفيه أبى الطيب المتنبى . وهو الذى صنف فيه كتاب « الثابتى الغريزى » أو « اللامع الغريزى »[2] وأهداه إلى الأمير عزيز الدولة

---

(١) رسالة الغفران ط . هندية بمصر ١٣٥

(٢) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٤٠

أبي الدوام ثابت وألف فيه كتاباً آخر سماه معجز أحمد » فى معانى شعر المتنبي وكان أبو العلاء شائع الحب لأبي الطيب المتنبي فابن الأثير الجزرى صاحب المثل السائر ذكر فى مثله بيتاً لأبي الطيب فى لفظه نفار ومعاظلة فقال عن المعرى (١) « إنه كان يتعصب لأبي الطيب حتى انه كان يسميه الشاعر ويسمى غيره من الشعراء باسمه وكان يقول ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو فى معناها فيجيء حسناً مثلها » .

ولقى أبو العلاء من جراء هذا الحب الذى محضه أبا الطيب عنت المؤرخين والناقدين بعده وأذيتهم فقد قال فيه ابن الأثير هذا بسبب ذلك :

« لكن الهوى كما يقال أعمى . وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة وأعماها عصبية فاجتمع له العمى من وجهتين » .

وكان أبو العلاء يعتز بهذا الحب وقد جر عليه هذا الإيثار لأبي الطيب أذية تجاوزت اللسان إلى اليد إن صح ماروا الراوون أن المعرى تصدى للشريف بمجلسه ببغداد وهو يثلب أبا الطيب فرد عليه بما أغاظه فأمر الشريف باخراجه مسحوباً من المجلس .

إذا عرفت كل هذا الحب الذى أحبه أبو العلاء لشاعره صح لدى تبرمه بابن القارح حين حشر المتنبي بين الزنادقة الملحدين وأقر عليه بادعاء النبوة وذكر مصدراً لم يصل إلينا من غيره عن حبس المتنبي ببغداد والذى تعلمه المصادر التى بين أيدينا سوى رسالة ابن القارح أن المتنبي خرج إليه لؤلؤ صاحب حمص من قبل الإخشيد فأمسك به وسجنه . فكان واضحا عندى أن أبا العلاء لم يعجبه أن يذم المتنبي ابن القارح ولا غيره . لكن النبوة التى سمى بها المتنبي لم تترك مناصاً لأبي العلاء يدافع خلاله عن صاحبه . وما كان ليروقه أن يذكر ابن القارح أبا الطيب كيف سجنه الوزير على بن عيسى (فى بغداد) وكيف أخرجه من السجن وأمر بقلع جمشكه وصفعه به خمسين صفعة وأعاده

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩٤

إلى السجن . وأن يتهمه ابن القارح بالكذب ويقول فيه « لقد كان يتحرش بالمكارم ويتحكك بها » فكان دفعه عنه دفع المحامى فى زماننا أمام القضاة عمن لزمته الجناية وقام عليه البرهان فقال أبو العلاء فى الدفاع عن دعوة المتنبي وخروجه (١) .

« وكان طمع فى شيء قد طمع فيه من هو دونه وإنما هى مقادير يديرها فى العلو مدير ، يظفر بها من وفق ، ولا يراع بالمجتهد أنه يخفق ، وقد دلت أشياء فى ديوانه على أنه كان متألهاً » .

فكان طمع المتنبي بالنبوة فى رأى أبي العلاء أمراً طمع فيه من هو دونه من المتنبئين . وعنده أن المتنبي إن أخفق فيما دعا إليه فلأن عثاره ملأ سبيله فلم يوفق إلى شيء من ذلك . وليس عليه من بأس — والقائل أبو العلاء — فى إخفاقه لأنه كان مجتهداً فلا على المجتهد أن يخفق . والتمس بعد ذلك له مخلصاً من براثن (النقد القارحى) فعرض على الشيخ ابن منصور الحلبي أبا الطيب فى معارض الدين والتأله ، وأن له أبياتاً فى ديوانه تدل على الدين وتسبيح الخالق . ثم أخرجه من المحكمة فعل قاض قد التمس لأحد المصادرين منجاة ومعتصما .

ونادى على غيره من أهل الجناية فادخل أبا نواس مسوقاً الى حضرته فى صورة زنديق . لأنه وصف نديماً من ندمائه بأنه كان تياهاً كتيه المغنى وظريفاً كظرف الزنديق . فعلق الناس بأبي نواس — وهو يسميه الحكمى حسب نسب النواسى حين كان مولى — لأنه أضاف الظرف إلى الزندقة . ثم موه أبو العلاء حكومته هذه فخرج من ظرف الزنديق إلى كلم فى النحو والوقوف على الهاء ، وجعل الكلام على صالح بن عبد القدوس الذى قتله المهدى لزندقته . وها هنا أخذ شيخ المعرة يسبح لله الحكيم ويصلى على رسوله عند ذكره لمقتل صالح بن عبد القدوس الذى أخذ غرته الجلاد فضربه بالسيف فاطاح به هامته فاذا رأسه يتدهدى على النطع — كما كتب ابن القارح إلى

(١) رسالة الغفران ، هنديه ١٢٤

أبي العلاء — فقال أبو العلاء : « فصلى الله على محمد فقد روى عنه أنه قال بعثت بالسيف ، ماتزال أمتى بخير ما حملت السيوف »

ثم مضى أبو العلاء على مطّرد ابن القارح فى ذكر الملحدين وأرباب الأهواء فكانت نوبة كلامه فى رسالة الغفران على القصار الأعور فقال عنه ، « وأما القصار فجهل يجمع ويصار . ثم أورد على موارد نقده الملحد الصناديق الزنديق المنسوب إلى الصناديق ، فحقق أبو العلاء فى منبته وذهب الى أنه هو الذى كان يعرف بالمنصور ، ظهر سنة سبعين ومائتين وقام برهة باليمن ، وفى زمانه كانت القيان تلعب بالدف وتنشد شعراً ذكره ابو العلاء فى رسالته وكله دعوة إلى نبوة المنصور الكاذب وصد عن نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وتحبيذ للمسافحة وانتباذ الأخلاق واستحلال المحرمات واستباحة الأعراض .

وقد وصمه ابو العلاء بالشاعر اليمنى الملحد وجلله باللعنة والثبور . فقال (وهذه الطبقة لعنها الله) . ثم ذكر زندقة يمنى آخر كان يحتجب فى حصن له ويجعل خادمه واسطة بينه وبين الناس ويسميه جبريل حتى قتله الخادم فى بعض الأيام .

وكان ابو العلاء صحيح الحكم حين قال إن الجاهلية كانت مبرأة من هذه المآثم التى عرفت فى عصور الإسلام فقال : (١)

« ولم تكن العرب فى الجاهلية تقدم على هذه العظائم ، والأمور غير النظائم ، بل كانت عقولهم تجنح إلى رأى الحكماء »

وقد يستعين أبو العلاء بكلمة التنطس التى جاء بها فى شعره حين نقد الفلاسفة فينقد بها الزنادقة والربوبيين قائلا :

« وافتن الناس فى الضلالة حتى استجازوا دعوى الربوبية فكان ذلك تنطساً فى الكفر »

وعاد إلى تفضيل الجاهلية فقال :

---

(١) رسالة الغفران . هندية ١٤٤

« وإنما كان الجاهلية يدفعون النبوة ولا يجيزون ذلك إلى سواه »

ثم نقد ابو العلاء المؤمنين برجعة المهدى ، وفند أقوال القرامطة وذكر مسوءاتهم العقلية وكشف عن أحابيلهم فى احتيالهم على السحت والتكسب بالدين وجعل السياسة منتوجاً فى نقده لإلحاد الوليد بن يزيد الخليفة العباسى الذى كانت زندقته وإمعانه فى شرب الخمر سبباً لقتله . فقال رأيه فى الخلافة العباسية . وكان يعرف خطورة هذا الرأى (١) .

« كان حق الخلافة أن تقضى إلى من هو بنسك معروف ، لا تصرفه عن الرشد صروف »

وكان فى رأيه هذا ممسكاً عن العنف والتصريح بفساد الخلفاء الذين عاصروه

ووجد ابو العلاء نفسه ممعناً فى الهجمة على الزنادقة وأهل الأهواء ، فشد من شكيمة قوله وأقصر فى اندفاعه فجعل يلتمس المعاذير والضرورات لأولئك الملاحدة الذين أتى على ذكرهم ابن القارح . وكأن أبا العلاء اشفق عليهم من جوارف التهم وكان الله وحده العالم بما تكن السرائر فكم متظاهر بالتقوى مبطن للمفاسد ينصب ميازينه فى التزمت والتدين بعين الأشهاد . وعند الله جزاؤه فى المعاد ، فيقول ابو العلاء :

« ولعل كثيراً ممن شهر بهذه الجهالات تكون طويته إقامة الشريعة والإرتاع برياضها المريعة ، فإن اللسان طاح وله بالفند إسماح »

حتى يجىء بعد حين على ذكر الحسين بن منصور الحلاج فيقول :

« وكم افتُرى للحلاج ، والكذب كثير الخلاج » ، فهو يرى أن العباسيين قد افتروا على الحلاج فقتلوه ظلماً وأنكر قوله لقاتليه (أتظنون أنكم إياى تقتلون إنما تقتلون بغلة المادرانى » ثم قرن ابو العلاء خروج الحلاج مألوف العقيدة بملق الناس ومواربة الزمن فجاء بذكر (قرد زبيدة) وكيف كان القواد أيام الرشيد يدخلون للسلام على هذا القرد . وتخريج هذه المطابقة

---

(١) المصدر السابق ١٤٥

بين الحلاج وقرد زبيدة أن الناس عبيد الكذب يتملقون بالمين ، ويدلس عليهم بالنفاق . فلو كان الحلاج أميراً أو غنياً لما ثاروا به لأقواله ، ولم يوردوه موارد الهلكة . على أنهم — وهم عبيد الباطل — كان قوادهم يومئذ يدخلون للسلام على قرد زبيدة التماساً لرضائها وفى ذلك مرضاة الرشيد حتى قتله يزيد ابن مزيد قائد الرشيد على أرمينية حين دخل عليه فى جملة المسلمين .

ثم خرج أبو العلاء من هذه المقابلة والتحليل إلى نقد أدبى لأبيات قالها الحلاج فى الحلولية والتناسخ فقال عنها :

« لا بأس بنظمها فى القوة » .

وقد وجدت المؤرخين الثقات لا يذهبون مذهب أبى العلاء فى التخريج لأقوال الحلاج ولا يشفقون عليه إشفاقه . فقد ذكره ابن سعد القرطبى فى صلة تاريخه للطبرى بأن الخليفة العباسى المقتدر أمر بقتله واحراقه بالنار بعد ضربه ألف سوط وبعد قطع يديه ورجليه . فوصفه القرطبى بأنه كان غوياً خبيثاً يتنقل فى البلدان ليموه على الجهال ، وأنه كان يظهر سنياً لأهل السنة وشيعياً لمن كان مذهبه التشيع ومعتزلياً لمن كان من المعتزلة . وكان خفيف الحركات شعوذياً ، حاول الطب وجرب الكيمياء فلم يزل يستعمل المخاريق لاستهواء العامة وأنه أدعى الربوبية وآمن بالحلول وعظم افتراؤه على الله عز وجل (١) .

وقد تتبع القرطبى أكاذيب الحلاج و (نيرنجاته) حتى آل إلى وصف مجلس محاكمته ومقتله . فصور كيف خاطبه أبو عمر قاضى المقتدر فرد مزاعمه ومفترياته على الحسن البصرى .

قال الحلاج بأمور تتعلق باستبدال الحج وجدها فى كتاب الخلاص للحسن البصرى — كما يقول — فأنكر عليه قاضى المقتدر ذلك وقال : (أنا قرأت كتاب الخلاص فما وجدتها فيه) وكتب كتاباً باستحلال دمه وقد حمل القاضى

---

(١) صلة ابن عريب لتاريخ الطبرى ص ٤٧ الطبعة الحسينية بمصر .

على الحكم بقتل الحلاج وزير المقتدر حامد بن عباس . فلما أحس الحلاج بالوقيعة قال لمحاكميه :

(دمى حرام ومايحل لكم أن تتأولوا على بما يبيحه اعتقادى الإسلام ومذهبى السنة ولى كتب فى الوراقين موجودة فى السنة فالله الله فى دمى) .

فأنفذ الوزير حامد بن عباس كتاب محاكمة الحلاج إلى صاحب الشرطة محمد بن عبد الصمد وتقدم إليه بتسلم الحلاج وإمضاء الأمر فيه فامتنع صاحب الشرطة من ذلك وخشى أن يخطف الحلاج أصحابه وهو يساق إلى القتل . فوقع الاتفاق على أن يحضر صاحب الشرطة بعد العتمة ومعه جماعة من غلمانه وقوم على بغال يجرون مجرى ساستها ليجعل الحلاج على بغل منها ويدخل فى غمار القوم . وأوصى الوزير صاحب الشرطة بأن يصم أذنيه عن كلام الحلاج ولو قال له : أجرى لك دجلة ذهباً .

فلما كان يوم مقتل الحلاج ضربه الجلاد ألف سوط فما تأوه ولا استعفى ثم قطعت يده ثم رجله ثم ضربت عنقه وأحرقت جثـــه ونصب رأسه على الجسر ببغداد ثم حمل رأسه إلى خراسان . فكانت دعوى أصحابه أن الذى قتل رجل آخر غير الحلاج ، وزعموا أنه عدو الحلاج وقد ألقى عليه شبهه فشبه لقاتليه .

وجاء العباسيون بالوراقين فحلفوهم أوثق الأيمان أن لايبيعوا من كتب الحلاج شيئا ولا يشروه .

* * *

كذلك دافع أبو العلاء المعرى عن الحلاج دفاعاً هو جهد المقل . ولو وسع أبا العلاء الكلام بأكثر من ذلك لفعل لأنه كان أبداً نصيراً للعقل وظهيرا لأحرار الفكر . وأراه مدافعاً عن الحلاج على الرغم مما ساق فى ذكره من مثل قوله :

« وأدل رتب الحلاج أن يكون شعوذياً » حتى قال فى معرض كلامه :

« وفى الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده يتوصل به إلى الدنيا الفانية » .

سبق المعرى فى الدهر الأول فدافع عن الحلاج ما اتهم به من الزندقة ولعل أبا العلاء كان عالما بكتب الحلاج نفسها وقد قرئت له إذ كان قتل الحلاج سنة (٣٠٩) للهجرة ؛ قبل مولد أبى العلاء بأربع وخمسين سنة . ولا يضير إطلاع أبى العلاء على ماينصف به الحلاج اطلاع ابن عريب[1] — وكان قريب المعاصرة للحلاج — فيما يدينه منه ويحقق فيه حق قتله .

قلت وكذلك قيضت الفلسفة الروحية للحلاج عالماً خطيراً من الغربيين هو المستشرق ماسينيون فوضع فيه كتاباً سماه (الحلاج الشهيد الصوفى فى الإسلام) نظر فيه إلى الحلاج من الوجهة الفلسفية وما وراء الطبيعة وقرنه بعظماء الفكر العالمى [2] .

* * *

وترك أبو العلاء الكلام على الحلاج إلى نقـــد أهل التناسخ والقائلين بالحلول . ثم بلغ الأشاعرة فجعل الأرض تلفهم والسماوات . وانتقل من نقده لأبى جعفر الشلمغان الذى استغوى ابن أبى عون صاحب كتاب التشبيه حتى ضربت عنقه معه ؛ إلى نقده لزندقة ابن الراوندى الذى كان عليه أكثر من عقله فقد ألف كتاباً سماه التاج يحتج فيه لقدم العالم ، ذكر ابن القارح أنه كتاب منقوض فقال أبو العلاء فى نقده .

« وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلا » ثم قال : « ما تاجه بتاج ملك ولكن دعى بالمهلك . وانطلق بعد نقده لكتاب التاج الذى وضعه الراوندى يشيد بذكر القرآن الكريم وبدائع إعجازه بما يصح معه أن تدفع عن أبى العلاء نفسه كل شبة تسود الرأى فى إعتقاده وإيمانه .

وحين بلغ أبو العلاء بكلامه آخر الرسالة إلى الشبلى أثنى عليه ثناء ابن القارح

---

(١) توفى ابن عريب سنة ٣٦٦ للهجرة

(٢) "Al Hallaj" martyre mystique de l'Islam —Par Louis Massignion

ورجا أن يكون سالماً من مذهب الحلولية ثم قاضاه على بيتيه اللذين يتوحد فيهما بالهوى وثواب أهليه بقوله :

باح مجنـــون عامر بهواه وكتمت الهوى ففزت بوجدى
وإذا كان فى القيامة نودى أين أهل الهوى تقدمت وحدى

فلم يشأ أبو العلاء أن يدعى الشبلى الانفراد من العالم . وهى نزعة اجتماعية عرف بها أبو العلاء وكررها فى شعره فخص الجماعة قبل أن يخص نفسه وكان هو القائل :

فلا نزلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

الفصل السابع

المواعظ الاجتماعية

الفصول والغايات ، كتاب العظات . سبح به أبو العلاء صنع الخلاق ، وبديع الارض والسماوات . فأنهض به الدليل العظيم على إيمانه القويم . وإن فى تلاوة صفحة واحدة منه بين رجع وغاية ، لكفاية ، فى درء الظنة عن أبى العلاء فيما زعم الزاعمون حين لمزوه فى الدين ، وعابوا عليه اليقين . فقال قائلهم أبو الحسن الباخرزى وأنداده : إنه عارض بالفصول والغايات والقرآن وحاذى السور والآيات وأظهر من نفسه تلك الجناية .

وكان خليقاً بالباخرزى أن يتثبت فيرى إلى فصل واحد من فصول أبى العلاء فى تمجيد الله والمواعظ ، فلا يرسل بالقول بغير دليل . ولو كنت أقول بثأر الأرواح ممن يتهم أصحابها بالجنايات وهم منها أبرياء ، لقلت إن روح أبى العلاء — وحاشى لها أن تفعل — قد قتلت أبا الحسن الباخرزى النيسابورى فمات مقتولا[1]

وقد دفع ابن سنان الخفاجى[2] عن المعرى كما روى البديعى[3] فى « الصبح المنبى » فنفى عنه معارضة القرآن . وليس يشغلنى فى هذا الكتاب الذى وقفته على نقد أبى العلاء للمجتمع ؛ أن أثبت صحة الدين عنده أو أدفع عنه لغو الهاجمين ؛ فقد كان ذلك شاغل ناس كثير منذ عصر أبى العلاء إلى اليوم . وبحسبى فى هذا الفصل أن اتنخل من الفصول والغايات جانباً من نظرات أبى العلاء إلى المجتمع ونقده اياه وإسداء الموعظة له . وإنى لأعد كتابه هذا عالماً زاخرا بالمواعظ النفسية والاجتماعية ، وسجلا لتأديب الجسم والروح ،

---

(١) سنة ٤٦٧ هـ (٢) توفى سنة ٤٦٦ هـ . (٣) توفى سنة ١٠٧٣ هـ

وناموساً للحكمة ، وسداداً للفرد والأمة . ناهيك فى معجزات الكلم والبيان وحديث اللغة والإعجاز فيها ، وعرض الضروب من أعاجيب الفصيح مما أرى فيه المعرى على الإعجاب وفاق حد التقدير فى (الغاية) وفى (التفسير) . ولو لم يكن لأبى العلاء سوى سفره هذا لكفاه التخليد . على أننا — نحن أبناء هذا الزمن — ماحظينا بغير الجزء الأول من هذا السفر وقد بلغ فيه أبو العلاء حرف الخاء .

* * *

لم يمض أبو العلاء فى كتابه (الفصول والغايات) على طريقة فى التقسيم أو منهج ، فليس كتابه إذن مقسما حسب المواعظ ، وإنما أجراه مجرى حروف الهجاء فاقتضاه أن يوزع موضوعات مواعظه خلال فصوله ، وقد بدأ كل فصل بتمجيد الله والتسبيح له ، بلفظ متواتر السجعات فى تكرار الحروف التى عليها السجعة . وحين نظرت فى كتابه هذا وجدت خلال مواعظه وفصوله نقدات اجتماعية ومواعظ أخلاقية ، ليست مقصورة على أبى العلاء وحده ؛ وإنما هى كلام لكل قارىء ، وخطاب لكل سامع . وقد يميل أبو العلاء من حروف الخطاب إلى ضمائر التكلم وأراه يريد نفسه فى كليهما ، فهو إذا خاطبك تجرد على مصطلح البلاغيين ثم عاد إلى محادثة نفسه . وقد وجدت أن جانباً من مقولاته فى النقد الاجتماعى فى سائر كتبه قد لخصه أبو العلاء فى الفصول والغايات وطرحه فى مطارح موزعة ، فبث خلاله حديث نسكه واعتزاله وكيف كان شبابه ، وما صار إليه فى شخوخته . ولم يخله من أسف على أمه التى ماتت منصرفه من بغداد . بل تكاد تكون الفصول والغايات مقصورة على أبى العلاء فى ابتهاله إلى الله والتفكر بآياته فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار . فلقد جعل السبيل إلى تسبيح الله الماء والحجر ، والنبات والشجر ، والإنسان والحيوان ، وكل كائن يخطر فى بال من يتوسل الى الله بالتسبيح .

لكن نقداته للمجتمع راحت موزعة منثورة خلال مواعظه الكثيرة حتى استأنيت فى تتبعها . فإذا بدأت فى ذكر نقده للآباء بسبب الأولاد أوردت قوله :(١)

« كنيت وأنا وليد بالعلاء فكأن علاء مات ، وبقيت العلامات، لأختار لرجل صدق ماولدله أن يدعى أبافلان ، ورب ثمرة شاكة ثمرها غير عذب ، وليس ظلها برطب »

فهو ينقد أباه إذ كناه ، فلم يكن له من يد بالاسم والكنية . لكن له يدا فى انقطاعه عن النسل فلم يتزوج ولم يولدله ولد . ولم يسم ابناً له علاء ، فكأنه ولد له العلاء ثم مات فبقيت العلامات . ثم ينحرف من قوله هذا إلى وجهة اجتماعية فلا يرى أن يكنى أحد بابنه . ويضرب على ذلك المثل بالشجرة الشائكة التى ثمرها مر ، ولا تقى الحر ، فإن من الظلم الاجتماعى أن يحمل الأب السيء اسم ابنه الصالح .

وهذا مماثل فى كرهه للتكنى بما قال فى شعره :

دعيت أبا العلاء وذاك مين ولكن الصحيح أبو النزول

وصور اضطراب المجتمع وفساده بموعظة بناها على الشرط فقال :(٢)

« إذا أصبح النصح ثقيلا ، والمساجد قالا وقيلا ، وصارت الإمارة غلابا والتجارة خلابا ، فالبيت المحفور خير لك من مشيدات القصور ، والفقير أربح صفقة من ذى التاج »

وهذا حال زمنه فقد وصفه كما ذكرت فى كتابى هذا بنثره وشعره . نقد المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، وعاب المرائين فى الدين ، وذكر قلق زمانه فى السياسة والتعادى وما إلى ذلك من فساد أهل التجارة ، وهو فى هذه الغاية يخلص إلى أن اضطراب المجتمع دليل على انحلاله ، فالموت لأهليه خير

---

(١) ص ٢١٤ .

(٢) ص ٢٥٥ .

من الحياة ، وفى مجتمع هذا نظيره ينبغى أن يفضـــل فيه الفقراء الملوك بالربح والارتياح .

ونقد المنافقين فى شعائر الدين فقال فيهم [١]

« فإذا صمت من المآثم فعند ذلك صم عن الطعام ، واحجج كاوم جرائمك فإذا برئت فاحجج عند ذلك مشاهد الصالحين ، واعلم أن صلاة المنافق صلاء نار ، وطهارة الخلد أبلغ من طهارة الجسد بالماء » .

إن أبا العلاء يعظ الصائمين المنافقين فيدعوهم الى الصوم عن المآثم قبل الصوم عن المطاعم . ويرى مداواتهم لجراحات جرائمهم قبل الحج شرطاً فيه . وصلاة المنافقين عنده نار تكوى جباههم فى السجود وجنوبهم فى العقود ، وطهارة الأنفس عنده سبيل إلى تطهير الأجساد .

أما الخمرة وما تفعل بالعقول فيعظ أبو العلاء فى أمرها فى مواقع كثيرة من الفصول والغايات . فقد أهاب بشراب الخمور يزجرهم ويقول : [٢]

« خافوا الله وتجنبوا المسكرات ، حمراء مثل النار ، وصفراء كالدينار . وبيضاء تشبه الآل ، وكميتا وصهباء ، وكل ماأدرك من الألوان . . . . ولو هجر أب لجناية ولد لحرم العنب لجريرة المدام وهل لها من ذنب ، إنما الذنب لعاصر الحون ، ومستخرجها وردية اللون ، وحابسها فى الدن ومنتظرها برهة من الدهر ، وشاربها ورد العطشان ، وتفوق الرضيع ، فاجتنبوا مايذهب العقول ، فمها عرف الصواب . »

أصلح الله أبا العلاء فقد بدا أكثر إغراء بالخمرة منه بنقد شاربها والبعد عن دنانها وأقداحها . ولو بعث النواسى بعده أو سمع منه فى الخمرة قوله ، لهاج لهذه الموعظة وماج ، وراح يقرع الكاس بالكاس ولملأ السكرخ عربدة وشرابا ، فإن أبا العلاء وصفها وصفاً يغرى بها أكثر مما يصد عنها . لقد جلاها فى خمرتها المتوهجة ، وصفرتها المذهبة وبياضها وشقرتها واسمرارها ، وقد دلنا

---

(١) ٢٨ (٢) ص ٤٠

بذلك على أنها كانت فى عصره كثيرة الألوان كما يقول . فماذا فعل إذن عصرنا المتأخر فى حمرة نبيذه وبياض عرقه ، وسمرة الوسكى وصهبة الشمبانيا ؟ .

ثم يدير المعرى كلامه إلى وجهة المواليد فلا يرى ذنباً لأبى الخمرة وهو العنب فلا عليه من ذنب . ولعل أبا العلاء وكان يكتفى بحلاوة مثله إذا مل من حلاوة التين . ويظهر من هذه القطعة أن المعرى كان عارفاً بصنوف الخمرة وأطوارها وبالدنان وأعمارها . فهو عالم بعصير الخمر الأسود واستخراجه بلونه المورد وعنده الخبر بحبس الخمرة فى الدن وانتظارها برهة من الدهر حتى تأتى عليها السنون بالتعتيق ثم يكرعها شاربها العطشان ، فكأنه رضيع اللبان ، ولولا أنها مذهبة للعقول التى بها عرف الصواب لما نهى أبو العلاء عنها . وقد وجدته فى شعره يصبو إليها ويزجره الدين والعقل عنها فيقول :

أيأتى نبىّ يجعل الخمر طلقة فتحمل شيئاً من همومى وأحزانى
وهيهات لو حلت لما كنت شارباً مخففةً فى الحلم كفة ميزانى

وتناول النحاة فجعل السبيل إلى نقدهم ما اقترفوه من زعم فى حركات الأسماء فقال :

« كذبت النحاة أنها تعلم لم رفع الفاعل ونصب المفعول ، إنما القوم مرجمون ، والعلم لعالم الغيوب خالق الأدب والأداب » .

فأبطل برأيه هذا كل مازعم النحاة واللغويون فى أسباب المرفوعات والمنصوبات وعمل العوامل فى الكلمات منذ أبى الأسود الدؤلى الذى هدى عليا إلى النحو والتأليف فيـــه إلى يومه . فعاد أبو العلاء بذلك إلى النظرية التوقيفية التى يقول بها ذووها إن اللغة والنحو أمر مرتجل على تلك الصورة ، وقد كان يصح أن يجىء على صورة أخرى . وقد أخذ أبو العلاء بهذه « النظرية » فى مكان آخر من الفصول والغايات حين أرجع جوارح الجسم وحواس المرء إلى منابتها من خلق الله فهى فى تصوره مرتجلة ، فكان عنده فى طوق الله تعالى أن يخلقنا على نظام آخر فنرى بأيدينا ونسمع بأعيننا .

ويشاء أبو العلاء أن يعمد إلى الحياة الاجتماعية فيحللها تحليلا ماليًا — إذ كان نظامها قائما على المال — وكان الدينار هو القطب الذى تدور عليه رحاها فتكلم على الدينار كلاماً ما أرى إلا أن الإمام الحريرى صاحب المقامات قد أخذ من دينار أبى العلاء نعت دينارة فوصفه بذى الوجهين وبلون الصفرة .

قال أبو العلاء فى الفصول والغايات وهو ينقد نقداً مالياً (١) .

« أعتمدُ على ذى وجهين ، ماعرف قط باليمين ، لو كان رجلا لكان ناصح الجيب . قلما خشى من الغيب . . ومتى بعث فى المآرب قضاها ، والله بلطفه أمضاها . ثم يحبس ولا ذنب له ، ليس حبسه ظلماً من فعله ، سجن فهو طوال الدهر مستريح ، لاتلج عليه الشمس ولا الريح . خص بالعمر الطويل فلبث أكثر من أبى عقيل ، وتناسخه جيل بعد جيل ، فظهر فى الأكاليل والاسورة والخلاخيل ، والكأس الدائرة بشراب الكرم والنخيل . ماشاب ولا هرم . . به صفرة من غير الضرب ، عرف بها فى الشرق والغرب ، تلقاه معلما بالتوحيد ، وليس بالعالم ولا البليد ، ولكن الله أنطق به كل جماد ، جل من سخره لقضاء الحاج » .

كذلك نظر أبو العلاء إلى الدنيا نظرة دنيوية بحتة وكان رحمه الله مخصوصا فى سنته كلها بثلاثين ديناراً يعطى نصفها خادمه ويصرف النصف الباقى لقضاء حاجاته . فأجرى كلامه على الدينار إجراء خبير بالذهب وقيمته وبالعيش ونفقته فجعل إعتماده عليه . وهو عنده ذو وجهين غير أنه (ليس مرائياً ولا مداجياً) وهذا مخالف لما وصفه به الحريرى من بعد المعرى فجعل الدينار (أصفر ذى وجهين كالمتافق) فهو عند أبى العلاء لم يعرف بالنفاق . وحين فكر فى حبسه وجده بريئاً لاذنب له . فذكرنى بأبى عثمان الجاحظ حين وفّى الدرهم أبعد من هذا القدر إذ جعل واحداً من أبطال كتابه « البخلاء » يخاطب

---

(١) ص ٢٨٨

درهما ويماحك نفسه فى بذله بعد أن ألح عليه نساؤه الجياع بجلب القوت ، وقد انصرف متثاقلا مدفوعاً إلى البذل . فورد فى طريقه على سائل يقول من يعطنى درهماً فأسلط هذا الثعبان على نفسى . فقال البخيل وقد وقفه الفكر عند قول صاحب الحيات : إن درهما عدل نفس وأبذله ؟ فرجع إلى آله وجعل يخاطب درهمه خطاباً ماأحسب البخيل « هارباغون » فى رواية موليير قد خاطب صرة دنانيره التى سلبت منه ودهاه فى سلبها الفزع الأكبر مثل هذا الخطاب فى هدوئه وسمته وتأنى حججه وأقنع ذلك البخيل نفسه بإعادة الدرهم إلى صرته ، وانقلب إلى نسائه وولده من غير أن يحمل إليهم الطعام .

إن أبا العلاء لم يكن ظريفاً كالجاحظ فى كلامه على المال ، ولا مثل موليير فى روعة تصويره لحفاظ بخيله على دنانيره . لقد كان تحليله لقضية المال تحليلا فى الإيجاب لا فى السلب فهو يريد الدينار للبذل لأنه يرى حبسه ظلماً وتعسفا . ثم التفت الى الدينار التفاتة شاعر . وكان أبو العلاء شاعراً قبل فلسفته ، فوصف الدينار بطول الأعمار ، وأنه ربما عمر أكثر مما عمر لبيد بن ربيعة العامرى وهو الشيخ أبو عقيل . ثم رمى المعرى الدينار فى حلقة أهل النحل والزنادقة فكتب عليه التناسخ والتقمص . فهو يرى الدينار وقد (تناسخه) جيل بعد جيل قد ظهر فى الأكاليل ، وبدا فى الأسورة والخلاخيل . وقد يشوق الدينار أن ينتشى فإذا هو قدح من ذهب يصب فيه الخمر فيسكر بها قبل شاربها . ولا أشك أن أبا العلاء قد نظر فى شعر النواسى كله وأحاط بوصفه للخمر . وكان ختام كلمته فى الدينار تحميدا لله به ، إذ كان كتابه تسبيحا للخالق وتمجيداً .

أما أهل الملحدة والزندقة فقال عنهم فى فصل غاية حرفه على الحاء :

« كأنى بالملحد قد ألحد ، وحصل من الأتراب على التراب ، وعاد فى لحد بعد جحد » .

وقد اكتفى أبو العلاء من هذه السجعات بنازلة الموت التى تنزل بالملحدين وهى أن يدفنوا ويتوسدوا التراب . فكان التراب كل ماجنوه فى حياتهم . إذ

كان هو غايتهم . لأنهم ينكرون الآخرة والقيامة فكانت العاقبة الوبيلة لهم بعد أن شد أعضادهم الأصحاب تركهم طعما للتراب .

لكن أبا العلاء فى فصل غايته على حرف الخاء يبدو أوضح تعنيفا لأهل الجمود والإلحاد وأقوى عليهم سوطا فيقول عنهم :

« أبعد الله الملحدة غير اعفاء ولا برزة ، بل هم الفساق الخونة ، إنهم للئام الزهدة » .

وواضحة كلمته فى الدعاء على أهل الإلحاد إلا الجملة الأخيرة فى قوله عنهم إنهم زهدة ولئام . وكان أبو العلاء زاهداً وكان متهما بالزندقة ولا أشك أنه قد حصل له من ذكر بين يديه مايقوله عنه بعض أهل عصره . وظاهر من قوله أنه يصف الملحدين باللؤم لكنه يقصره على الزهدة المتظاهرين بالزهادة

ولئن وعظ أبو العلاء الناس فإنما كان يعظ نفسه ، وقد ألف كتابه هذا ابتهالة موجهة إلى الله ، مصعدة نحو الملأ الأعلى . وكان فى كتابه يتحدث عن نفسه فى أويقات وخلال كلمات لايجمعها فصل ولا يضم بينهما شمل .

إنه وعظ نفسه فأوصاها فى البعد عن الناس وأقر بالعزلة فقال[1]

« إنما أنا حى كالميت أو ميت كالحى وما (اعتزلت) إلا بعد ماجددت وهزلت ، فوجدتنى لا أنفذ فى جد ولا هزل ، فعلى بالصبر ، ولا بد للبهمة من انفراج » .

وأرخ لنفسه فى بعض الحوادث الجسام التى أثرت فى مجرى حياته كموت أمه فقال وهو قافل من العراق قادم على بلده لايحمد قفولا أصاب بعده فقد الوالدة وقد حدثنا فى شعره ورسائله عن حبه لها .

فقال فى فصوله :

« لو قدمت فى الحقيبة بالصحة والخلود ، وأصبت الوالدة قد سبق بها

---

(١) ٢٩٧

الحمام لوجب الا ابتهج بذلك القدوم ، أبعد الله خيراً لا ينتفع به الأودّاء »

وذكر فيها أنه مقيم فى الشام تواق للتروح إلى الغور أو الحجاز ، كقوله :

« لطفك منقل الأجساد ، إنى بالشام لمقيم ولعل صروف الأيام تنزل بى الغور والحجاز »

وهذا مصداق لما كان يتوق إليه من البعد عن المعرة لكثرة القلق فيها . إذ كان الفزع يأخذ أهليها حينا بعد حين من اضطراب فى السياسة وتعاور الحرب على شمالى الشام ، فكان يوصى صديقاً له بسكنى الحجاز لأنه دارة أمن ودعة — كما ذكرت فى هذا الكتاب .

وقد نقرت فى الفصول والغايات لأعرف زمن إملائها فصح عندى أنها كانت (كتاب عمره) . وجدته بدأها فى أواخر شبابه وانتهى منها شيخاً ، ودليلى على أنه بدأها فى الشبيبة قوله[1] :

« . . . . وقد صرفت نفسى فى الشبيبة فألفيتها صاحبة جماح فالآن وقد اسمألت الظلال ، إن تركتها أسفت وإن زجرتها فلا انزجار ، كأن كلامى سفير الريح مالها اليه التفات . . . .

(أفنيت الشبيبة سوى سواد قد آن له أن يبدل ببياض) . قد خيط الوضح مفارق رجال أنا قبلهم فى الزمان ، ولا منفعة بشعر الكذاب »

فهذا النص وثيقة من أبى العلاء « تثبت أنه كتب هذا الفصل فى غاياته وكان فى أعقاب الشباب وأوائل الكهولة لكن أبا العلاء قد انفرد رأسه بظاهرة نادرة ، وهى أنه لم يبيض شعره على الكبرة . فهو يستغرب ذلك من رأسه الذى آن له أن يشيب . ويدفع عن نفسه ظنة من يحسبه يخضب شعره بأنه من أولئك الصادقين فى شعر الرأس ، الذين لا يكذبون فيه ، وهى نزعة من المتنبى الذى تأثر أبو العلاء خطواته فى تهذيب النفس وصدق الشعور ؛ إذ كان أبو الطيب يقول :

---

(١) ٢٣١

ومن هوى الصدق فى قولى وعادته رغبت عن شعر فى الرأس مكذوب
ومن هوى كل ماليست موهة تركت لون مشيبى غير مخضوب

أما الدليل على أن أبا العلاء استمر فى كتابة الفصول إلى شيخوخته وان شعر رأسه ظل اسود فى الشيخوخة فلم يشب فقوله [1] :

« (نفد عمرى) وغيرى المصيب ، رأسى أسحم ولداتى شيب ، ولا يرد قدرك لون غريب ، ويدعو الموت فأجيب » فهو لايجمجم فى ذكر سنه . إنه إذن كان يملى الفصول والغايات فى شيخوخته أيضاً . وإن كان قد أملاها فى أواخر شبابه وأملاها فى الشيخوخة والهرم عند (نفاد العمر) ، فذلك أعظم دليل على ماذهبت إليه من أن الفصول والغايات كان (كتاب عمره) وسجل أيامه . لقد كان توراة شهوره ، ومصحف اعوامه وسفر توحيده لله وتمجيده لخالقه الحكيم . بل ما اشبهه بكتاب الأوراد الذى يتلوه كل صباح وكل مساء ، أصدق العابدين . وأطهر الساجدين .

وإنه لكشف عن رأس المعرى أسجله فى هذا الكتاب . فقد عاش أسود الشعر لم يكن للشيب سبيل الى رأسه حتى تركه هذا الأمر عاجباً مستغربا يجد لداته وصحابه قد كلل رؤوسهم البياض ، ويعلم أن رأسه مازال اسود الشعر فاحماً غربيباً فلا يتيه بهذه المنة الإلهية التى مامن بها الله إلا على القليل . فيقول : (ولا يرد قدرك لون غريب) .

ويحق عندى أنه ظل يملى فى الفصول والغايات حتى قبيل موته . ودليل ذلك قوله فى النص السابق : (ويدعو الموت فأجيب) أى كان هامة اليوم أوغد من طول الهرم والاستعداد للموت .

وقد تقوم مشكلة علمية بين يدى هذا الفصل أسائل فيها نفسى :

— إن كانت الفصول والغايات سجل أبى العلاء فى مديد عمره كتبها من أواخر شبابه حتى أواخر شيخوخته ، فكيف رتبها بالتعاقب على حروف الهجاء ؟

---

(١) ٣٦٦

وهذا يدعو — من الوجهة العلمية والأسلوب المنهجي — أن يمليها واحدة بعد واحدة وأن يذكر شبابه فى أولها ، وشيخوخته فى آخرها ، وكذلك فعل ، فقد ذكر شبابه فى ثلثها الأول وشيخوخته فى ثلثها الأخير . ولكن ليس جميع مابين أيدينا هو كل الفصول والغايات . وأين حرف الخاء وهو غاية الجزء الأول من حرف الياء وهو ما لم يصل إلينا ؟

أقول إن عادة أبى العلاء التى عودنا إياها فى إملاء اللزوميات أنه لم يتبع فيها ترتيباً زمنياً وإن أتبع الترتيب الحرفى . إنه نظم اللزوميات ثم رتبها حين فرغ منها . لكنه — كما أراه — لم يفعل ذلك فى الفصول والغايات فإنه املاها فى ترتيب حرفى جرى مع الترتيب الزمنى .

وينبغى وفق هذا الاستقراء أن يكون أبو العلاء قد أملى الفصول والغايات مجلساً بعد مجلس . فاذا فرغ من حرف صار الى الذى بعده حتى أكملها . لأن تتابع الحوادث فيها يدل على هذا الترتيب فى غايات الحروف التى انتهت اليها الفصول وفى الزمن الذى أملاها فيه أبو العلاء . أقر أبو العلاء بأنه فى عمره آخر الشيبة فى الصدر الأول من الفصول ثم ذكر اعتزاله ، وهو أمر عرف زمنه ، وفى القسم الأخير من كتابه ذكر شيخوخته . والكتاب وإن كان هذا جزؤه الأول فلا تثريب علىّ بالاستدلال ؛ فإن من عادة المؤلفين فى أجزاء كتبهم الأولى أن يتبعوا ذلك من أنفسهم فإذا تم هذا الاستقراء فإنى قائل بأن أبا العلاء قد أتبع فى كتابه الفصول والغايات ترتيباً حرفياً متماشياً مع الترتيب الزمنى ، ومتى اكتشفت بقية فصوله وغاياته أكدت مذهبى ، ولم يتبع أبو العلاء فى الغايات الحرفية للفصول لزوم مالا يلزم فعنده (الاعراج) بعد (مهزاج) ويتبعها (انفراج) فالراء هاهنا قبل الزاى والحرف الذى قبل الراء وهو العين جاء قبل الهاء وفى هذا إخلال فى التعاقب الحرفى للزوم مالا يلزم عل طريقة أبى العلاء فى ديوانه الكبير .

وقد كان أبو العلاء فى فصوله هذه قاسياً على نفسه بأكثر من اللزوميات

إنى لأشبهه بمتقشفى الهند الذين يجورون على جسومهم بضروب العذاب . لقد وجدته يقول[١]

« لو أمنت التبعة لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب حتى أخلص من ضنك الحياة » .

ولا أشك أنه قال ذلك فى حالة من حالات اليأس الشديد الذى يعترى النفوس فتسيغ الموت وتراه هيناً فى سبيل خلوصها من الحياة المعذبة ، ولو علم ابو العلاء ان هندياً سيأتى بعده بألف عام يسمى (غاندى) يفعل ما كان يتمناه ابو العلاء يصوم الأسابيع ليخلص من ضنك (السياسة) لا من ضنك (الحياة) لهشت عظامه فى ثراه لهذه الموافقة الشاجية ؛ بين متقشف المعرة ، وزاهد الهند .

---

(١) ص ٣٦٠